الأسرة وانتكاس الحياة الروحية

فى مصر

للدكتور مصطفى كامل وصفى الرفاعى

بينا فيما سبق أن الحياة الروحية نشأت فى وعاء روحى دينى ، والإقبال على ثقافات ومدنيات أجنبية غير ملائمة لنا ، وغير منسجة فيما بينها ، إذ أنها مقتبسة من شعوب متباينة ، وتقوم على أسس متعارضة فضلا عن أنها حديثة التكوين لم تستقر بعد ولم تسلم من الشك والنقد .

* * *

وقد منيت الأسرة المصرية ، بسبب هذا النكوص .

فمن الناحية الاجتماعية البحتة ، تعتبر الأسرة هى الوحدة الأساسية أو الخلية التى يتكون المجتمع من تكرارها . وهى كشأن أية وحدة اجتماعية لا بد أن تعيش على ثلاثة عناصر :

سلطة يجتمع حولها أعضاء الوحدة

نظام يستهدف صالح الجماعة ذاتها واستمرار الغرض الذى تقوم عليه .

أفراد متماسكون حول هذه السلطة وحول الغرض الذى ترعاه الوحدة .

وكانت السلطة الجامعة فى هذه الخلية هى الأب . الرجل . فهو بحكم قوته وقوامته يستطيع أن يحفظ على الأسرة كيانها وأن يمنع أفرادها من التشتت ، وأن يقيم العدل بين أفراد الأسرة بتطبيق النظم فيها تطبيقاً موضوعياً لا محاباة فيه ومتفقا معها صالحها الحيوى .

* * *

وكان الدين يظاهر هذه الحقيقة الاجتماعية فى نفوسنا ، بما نص على أن الرجال قوامون على النساء . وبما جعل للرجل فى سلطان وتقدم .

ولكن لما أصبنا بنكسة الإعجاب بكل ما هو أجنبي ، وحسن لنا ماتراه من الأجانب مع النساء فاندفعنا فسبقنا الأجانب فى المضمار . فتربعت النساء عرشاً خلنه من حقهن ، ووقف الرجل عن كثب يحيي المدنية الجديدة ويؤدى شعائرها بكل فخر .

ولقد أصبح مناط الأمور فى الأسرة التى تأخذ بأسباب المدنية الغربية للمرأة . والكلمة النهائية لها . هى التى تأذن الرجل فى أعماله وهى التى تكيف سير حياته اليومى والخطة العامة للأسرة . وتضع مالية الأسرة وتقرر أبواب الصرف فيها . بل أصبح الرجال لا يفتشون إلا على النساء ذوات المهن والدخل . وتفرض المرأة وصايتها على الرجل باسم الحنان عليه وإدراكها لصالحه خيراً مما يدركه لنفسه . وتفرض عليه آراءها من باب حقها فى المشاورة والنصح . فإذا لم ينتصر لرأيها بكت واستصرخت وانقلب النقاش عويلا وانقلبت العشرة تمنعاً فلا يجد الرجل مفراً من التسليم .

* * *

والمرأة بطبيعتها لا تصلح للقيامة ولا للقوامة ، وإن قدمت من الآراء ما يخال لسامعه أنه صواب ، وذلك بسبب دورها فى الحياة . ولا تزدهر ولا تؤدى دورها الحقيق إلا وهى معتمدة على الرجل . وهذا القوام ، هو أساس حياتها وصلبها . فإذا انهار سقطت المرأة على الأرض كومة لا قوام لها . وإذا خرجت من اعتمادها على الرجل إلى الاعتماد على غيره كمال أو مهنة ، فقدت ازدهارها ورواءها الطبيعى ، وأصبحت شيئاً جافا خشنا شديد التغول والافتراس .

وبسبب أن المرأة بطبيعتها تعتمد على الرجل فى حياتها ، نجد أن خلقها الطبيعى يميل إلى الخوف الشديد من فقدان هذا العائل . ومن الحرص الشديد على المستقبل والرغبة فى التأمين والاحتياط ، ومحاولة المحافظة على الاستئثار ببيئتها فلا يتطرق إليها من تخشى أن ينافسها فيها فتبعد عن الرجل أمه وأهله وأصدقاءه وسائر بنات جنسها وتميل إلى الاعتكاف به والاعتزال عنه ، واستخلاصه للهو معها ولأن يقضى أكثر وقته معها وتجريده عن

المساهمة فى الحياة العامة ، إلا أن كان وراء ذلك مادة وكسب مالى ، مما يوافق طبيعتها فى الاحتياط للمستقبل والادخار . ثم هى فى نفس الوقت تريد أن تزهو بنفسها وتظهر زينتها لتأمن منافساتها أو لتعوض لنفسها ما تراه من عدم عناية رجلها بها . فتسرف فى زينتها كل الإسراف وتنفق على المظاهر والكماليات بينما تقتر بالملاليم فى الضروريات .

أما الرجل فأخلاقه أخلاق من تعود الاعتماد عليه أخلاق عريضة سخية ، فهو يميل إلى الكرم والإنفاق وإلى النجدة والشهامة والمروءة وإلى الاختلاط بالناس . أخلاق عريضة مفتوحة .

* * *

فإذا ساد هذا النوع من التوجيه فى المجتمع ، فإنه لا يلبث أن يتسرب إليه الفساد والانهيار .

ونظرة واحدة إلى بعض الملامح العامة فى حياتنا تؤكد ما نقول :

انظر إلى تجارة الكماليات وتجارة الضروريات فى الأسواق واحكم مدى الفساد الذى أصاب اقتصادنا بسبب تسلط النساء . وانظر إلى الطاقة الكبيرة من المال والجهد التى تستنفد فى تزيين واجهات المحلات المضيئة الملونة وما يبذله عارضو الأزياء والسلع من أوجه التأنق والتفنن لبيع أشياء لا فائدة فيها لمن يشتريها . وكيف صارت تجارة الأدوات المنزلية والثلاجات والأفران والمطابخ أروج التجارات وكيف تدور المعاملات بأسرع من البرق بأبهظ الأثمان وبلا نقاش . ثم قارن ذلك ببائع الكوسة أو القرنبيط الذى تماكسه المرأة ذاتها — هى نفسها — على ملاليم . وتصيح فى وجهه بكل ما يخرجه عن زمرة المسلمين والفاضلين والمؤمنين

انظر إلى الإنحلال الذى أصابنا من صفوف المتهالكين على الملاهى مع نسائهن والمنتظرين أمام شبابيك السينما كل مساء للحجز مقدماً .. ومن هذا الجيش العارم من السيارات وما يتطلبه ذلك من نفقة هائلة . والتى تسير لغرض تافه هو مجرد البحث عن مقعد .. أى مقعد فى أى سينما .. ثم العودة بخفى حنين لأن الأماكن قد امتلأت .

كم من الرجال الشرفاء أسندت لهم المناصب فاستحالوا إلى وحوش دنيئة أنانية ، ومدوا أيديهم إلى الحرام لكى يشتروا للسيدة فراء ثمينا وسيارة فارهة وفيللا أنيقة ويكنزون « شيئا » للأولاد ! ! مطالب نسائية وحياة نسائية أفسدت على هذا البلد كثيرا من أبنائه .

إن المرأة هى السبب فى هذا الانحلال وفى ضياع طاقاتنا الاقتصادية وتوجيهها وجهة هالكة وإنها السبب فى تفشى الرشوة والفساد . وألقى تبعة ذلك على المقتبسين بلا تروى من مدنية فرنسا . وألقى على المجلات التى تغذى سيطرة المرأة وهدم النظام العائلى وتمزيق أنسجة هذه الخلية باسم الدفاع عن حقوق المرأة .

إن الآراء التى تنشرها هذه المجلات لتقلب الأوضاع فى الأسرة خلاصتها حرب على النظام المستقر فى المجتمع ، وإن كانت تبدو مرة فى وميض البرق ولمعات السيوف التيارة ، وطوراً مسربلة فى طيات من الحرير الهفهاف والروائح العطرية والدموع الدافئة والزفرات الناعمة الحارة .

فننظر إلى طائفة من عناوين المقالات التى تنشر فى سبيل هذه الحرب الجديدة التى تشنها حواء بما عرف عنها من الصبر والأناة لبلوغ أغراضها ، من ذلك مقالة فى إحدى مجلات نسائية باسم « سيد البيت » وفى صدر الصفحة صورة قاسية لرجل كالوحش يقبض على رسغ امرأة باكية يفتت منظرها الأكباد ! ومقالة باسم « جرائم ترتكب باسم القانون ! » قد تطرق الكاتب فى هذه المقالة إلى الكلام عن قوانين الحضانة وبيت الطاعة والإصلاح الجرىء !! وتستعمل المجلة جانبها الرقيق فى مقالة أخرى بعنوان : « ميزان البيت شركة بين الزوجين » (مع ملاحظة ما تنشره المجلة ذاتها من أسباب إغراق هذه الميزانية كالثياب الغالية والاطباق اللذيذة وآخر أخبار الفترينة من حقائب وعطور وقفازات مما غلا ثمنه وخف حمله) وتتدرج الحملة إلى حد أكبر من النعومة فى مقالات من نوع « كونى جميلة .. اليوم وغدا ودائماً ! »

ولعل الصراع الموجود حاليا حول هدم نظام الدين فى الأحوال الشخصية والقضاء على ما أمر الله به فى شئون الأسرة ، هو وجه من أوجه هذا النزاع الذى شنته المرأة على المجتمع .

وأهم أسباب هذه الحملة هى الرغبة فى تقييد السلطة الشرعية للرجل وتحريم تعدد الزوجات . والواقع لقد أصبح من المستحيل على الرجل أن يعول أكثر من مرأة فى ظل نظامنا الحديث : كيف يعول نساء كل منهن تكتسى شتاء بمئات الجنيهات وصيفا بمثلها ! وينفقن على زينتهن وملاهيهن مالا قبل لرجل أن يتحمله مهما طالت ميزانيته . وكيف يعولهن متعددات وقد أصبح الآن لهن مطالب عاطفية ووجدانية وحقوقا أنشأتها على الرجل أن يغضبن إذا لم يلاحظ ، ويبكين إذا لم يسارع ويولولن إذا لم يدلل ؟ فكيف يعول الرجل عديدا من أمثال هذه العواطف الحارة والثورات المحتدمة والرغبات المنطلقة ؟ لقد أصبح تعدد الزوجات فى جو هذا الدلال النسائى مستحيلا !!

وما بال الرغبة الطبيعية فى الرجل ، والتى خلقها الله متعددة وهذا شأنه ولا نقاش لنا فيه . . . ؟

إذا كنا بصدد رغبة مقابل رغبة رغبة الرجل التعدد ورغبة المرأة فى احتكار الرجل ، فلتنتصر رغبة المرأة إذن ولا يجرؤ أحد فى هذا المجتمع أن يناقشها ... ثم بعد ذلك ليفشو الزنا . وليخدع الأزواج زوجاتهن . وليتخذوا الخليلات . وليصر كل رجل فى منزله حقيرا لأن عليه زلة وله غلطة .. فتزيد بذلك شوكة المرأة . كل ذلك مقبول فى نظير أن تحتكر المرأة عواطف الرجل وتفرض عليه فرضا أنه لا يستطيع أن يحب إلا واحدة !!

وليت الأمر وقف عند ذلك ، بل جاء دور الفتية والفتيات . وجاء دور تحكم المراهقين فى شئون الأسرة . فقد استعمل « الكبت » والتبجح والدلع فى إخضاع الأبوين . بعد أن انزوى الرجل وحلت محله المرأة بأهوائها وضعفها . ولم تقتصر هذه المجلات النسائية فى أداء رسالتها فى إفساد البنين . فنشرت مقالات بعنوان : « حرية البنات ! » وقدمت لها بهذا التقديم اللبق « هل يجوز أن نفتح أبواب العلم لبناتنا ، ثم نفرض عليهن نظام الحريم ؟ » ومقالة أخرى بعنوان : آباء يسجنون الأبناء » وثالثة بعنوان : « متى يرحم الأهل ؟ » وزاد الطين بلة ما تنشره هذه المجلات بعنوان : مشكلتك أو مانحوه ... إذ يشرحون فيها مختلف أنواع الآباء والأمهات

ويظهرون ماعيبهم للجيل الحديث، فصار أحدنا إذا خاطب ولده وجده يناقشه بأفانين وأحاجيج مما أمده به هؤلاء القادة المربون . لأنهم يعثرون على مقالات تبلور لهم معايب الآباء ، وتشرح لهم كيف أن كل أب أو أم مقصرة . إن كان أبا نشطا مكبا على عمله اتهم بأنه يهجر المنزل ولا يعطيه وقتا . وإن كان أبا عاكفا على منزله اتهم بأنه محصور منزوى لا صلة له بالناس وهكذا كل أب وأم من أى نوع يجد فى هذه المقالات نقدا له ، فأصبح من المستحيل علينا أن نلقن الأبناء ، ولم تعد إذن أمثلة يعجبون بها ، بل هدفا لنقدهم وتجريحهم . بل لتوجيهاتهم ونصحهم !

وتساهم الإذاعة والسينما فى ذلك كله أيضاً . ومؤلفونا أحداث ليسوا على خبرة فى عرض المشاكل فيبلبلون الأفكار ويهدمون القيم .

هذا من ضمن الأسباب التى صورت المجتمع فى هذه الصورة التى نراها . قطيع منكب على الملاهى والكماليات منصرف عن الجد ، تهبط مثله من الترابط والتضامن والشهامه والنجدة ، إلى حضيض الأنانية والتفكك والتخلى .

قوة الإنتاج معطلة ، وقوة الاستهلاك منبعثة قائمة سقوط إلى اللهو والترف وما يستتبعه من الكسب الحرام والإنفاق الحرام .

أسر ممزقة وأبناء متمدون متبجحون يحكمون أهليهم بنزواتهم .

ومن حسن الحظ أن العيب لم يستشر بعد فى جميع الطبقات ، بل ما زال رهن الطبقة المثقفة من أبناء المدن ، ولا سيما الثرية منها . ولا منقذ لنا إلا أن نعود إلى الدين . الذى وضعه عليم النفوس خبير بما يصلح لها .

زفاف مبارك

احتفل السيد الشيخ عبد العاطى أبو العلا نائب السادة البيوميه بمديرية أسيوط بزفاف نجله السيد قطب عبد العاطى . وأقيم لهذه المناسبة حفل بهيج دعى إليه صفوة من أعيان المديرية ورجال العلم والأدب فيها .